مقدمة

المتتبع لحركة الانتـــاج الفنى فى أدبنا المعاصر يلحظ أن فن الرواية أخذ يحتل تدريجيا مكان الصدارة فى حياتنا الفنية ، وأصبح يشغل القسط الأكبر من اهتمام المنتج والمتلقى والناقد جميعا .. كما أصبح يحظى باهتمـــام الكثيرين من الدارســـين يحاولون أن يضعوا له القواعد والأسس .

والواقع أن هناك ملاحظتين هامتين تستثيران الانتباه فى هذا الحقل .. الأولى هى أن الانتاج الروائى العربى المعاصر يصل الى درجة من الاصالة تجعل من المذهل حقا أن يكون هذا الفن وليد عشرات من السنين فحسب . كما تجعل من المتعذر على التفكير العلمى أن يقبل ما يردده الكثيرون من أن هذا الفن مستحدث فى أدبنا العربى لا جذور له ، نقلناه مع ما نقلنا من صور الحضارة الغربية ، وقلدناه محاكين ما نقلناه ، ثم بدأنا ننتج بعد هـــذا الوانا متفردة من هـــذا الفن الجديد على أدبنا .. اذ ليس من المعقول فى تاريخ أى لون من الوان الأدب أن يصل الى ما وصل اليه فن الرواية عندنا من تقدم فى مثل الوقت الذى يقترح فيه أصحاب هذا الافتراض الذى يعتنقه الكثيرون .. والأدب ليس بدعة تنقل فتحتذى ثم ما تلبث أن تؤصل نفسها عند المقلدين ، انما الأدب جزء من طبيعة الشعب ، وحتى يستطيع لون جديد من الانتاج أن يدخل ويزدهر عند شعب من الشـــعوب لابد أن

يستغرق من الزمن والتطور ما يوائم بين مزاج هذا الشعب وبين الفن الجديد.. بل لعله يستلزم الوانا من التغيير تطرأ فى حياة هذا الشعب وتقاليده بحيث يقبل على هذا الفن الجديد .. وكلمة تغيير هنا لا تعنى الشكل الخارجى للحياة بقدر ما تعنى التغيير الجذرى الذى يمس الأصول الأولى لمكونات هـذا الشعب .. وليس فى الزمن المقترح ـ وهو لا يتعدى عشرات السـنين ـ ما يسمح لنا بأن نتقبل هذا الافتراض مسلمين ، ولابد لنا اذن من البحث عن سبب آخر غير التقليد ، كما لابد لنا أن نبحث عن أصول أخرى غير النقل والترجمة لفننا الروائى العربى الذى أخذ يتكامل هذه الأيام بسرعة مذهلة ..

الملاحظة الثانية هى أن كل دراسة تتناول الرواية انما تعمد فى تسليم مطلق الى البحث عن قواعد واصول فى اتجاهات الرواية فى الآداب العالمية من حولنا .. وقد ادى هـذا الى نوع من الاضطراب فى القيم والمقاييس .. فليس من شك فى أن وجود اكثر من اتجاه ثقافى عند الدارسين قد أدى الى وجود اكثر من تيار نقدى يتحكم فى تقييم الأعمال التى يتناولونها .. وقد يكون هذا التعدد فى حد ذاته مفيدا لو كان ينبع من أصول عميقة لها علاقة بتراثنا وفننا ، أما وقد استمد هـذا التعدد وجوده من الارتباط بآداب أخرى لا علاقة لها بالمنابع الأولى لفننا ، فمن هنا يؤدى هذا التنوع الى الخلط والاضطراب ... وهذا التعدد فى الاتجاهات عند الدارسين والنقاد قد أدى فى وقت ما الى ما يشبه التوقف فى انتاجنـا الروائى اثر ما احس به المنتجون من حيرة

واضطراب امام تعارض الأحكام النقدية واختلافهـا .. بل لقد احس الكثيرون من المنتجين ان الدارســين والناقدين يريدون أن يفرضوا عليهم اتجاهات بعينها فى الانتــاج ، واحسوا بعجزهم الفنى حيال هذا الفرض ، ربما لأنه لم يكن يوائم طبيعتهم الفنية ، وربما لأنه كان بعيدا كل البعد عن تصورهم هم للعمل الروائى . وهو فى كل حال اتجاه مفروض منقول لم يستمد جذوره من حياتنا وفننا ..

هاتان الملحوظتان تحتمان دراسة فن الرواية العربية دراسة جديدة تحاول ان تجيب على هذا السؤال : اليست هناك جذور أعمق من النقل والترجمة للرواية العربية ؟ ..

والواقع ان الدارسين المحدثين لفن الرواية والقصة العربية قد استراحوا الى الافتراض الذى يقول ان هذا الفن مستحدث فى ادبنا ، نقلناه نقلا عن الآداب الغربية ضمن ما نقلنا من صور الحضارة والفن فى مطلع حركتنا الفكرية عن طريق الترجمة حينا ، وعن طريق المحاكاة والتقليد بعد ذلك ..

وقد أكد هذا الافتراض فى اذهانهم ان دارسى ادبنا العربى القديم القوا الضوء كله على تراثناالشعرى ، واعتبروه الفن القولى الأول عند العرب ، وشغلوا الأذهان بما اخذوا انفسهم به من منهج يقوم على الشك الشديد والانكار الجازم الذى ينتهى بهم الى اثبات ما نقلته كتب البلاغة والنقد العربى فى أمر الشعر .. وكأنهم ما ارادوا بهذا المنهج الذى اخــذوا انفسهم واخذوا النــاس به

الا اثارة الانتباه الى أهمية التعرف على هذا اللون من التراث والعناية به ..

وسار التابعون على سنة من سبقوهم فى الطريق ، فركزوا دراساتهم كلها على الشعر فى عصوره ، والشعر فى بيئاته ، والشعر فى أغراضه ، والشعر فى مقاييسه ، والشعر فى تطوره ..

ورغم هذا الحرص الشديد الذى تناول به الدارسون الشعر العربى ، من منهج يقوم على الشك أول الأمر ، ثم على دراسة البيئة بكل مكوناتها ، ثم على دراسة الشاعر نفسه على ضوء عصره وبيئته ثم آخر الأمر على دراسة الشعر على ضوء مفاهيم النقد والبلاغة .. رغم هذا الحرص فى دراسة الشعر ، نحس قصورا ملحوظا فى الاهتمام بأمر الانتاج النثرى ، ونحس تسليما مطلقا بما تناقله البلاغيون القدماء من أن النثر العربى اقتصر على الحكمة وسجع الكهان ، ثم على الخطابة والرسائل بنوعيها .. !

لم يشكوا لحظة كما شكوا فى أمر الشعر .. ولم يعرضوا هذه الحقيقية التى ينقلونها نقلا عن كتب البلاغة على بساط البحث والدراسة .. بل سلموا بها تسليما كاملا ، طالما وجدوا فيما نقلته هذه الكتب اليهم من نماذج الشعر ما يغنيهم ويشغلهم عن غيره من الفنون ..

والعجيب أن هذه الدراسات المحدثة المتتابعة فى الشعر العربى قد خرجت الى نتائج واضحة تؤيد أن مؤرخى الأدب القدماء

والبلاغيين الأول قد خدعوا الدارسين المحدثين فى أمر الشعر والشعراء .. !

فقد وجد الدارسون المعاصرون أن الشعراء الذين اعتبروهم ـ جريا وراء من نقلوا عنهم من بلاغيين ـ قمما شامخة لم يكونوا الا نماذج لها ما يضارعها ، ان لم يكن لها ما يفوقها ويعلو عليها ..

واكتشف الدارسون المحدثون أن ما عرفوا من شعر ليس ديوان العرب كما حسبوا ، بل ليس الا قطرة ضئيلة فى الإنتاج الشعرى الضخم الذى قدمته أمة العرب للتراث الانسانى ..

وعرفوا ـ متأخرين ـ أن ما شغلوا انفسهم وشغلوا الناس به من أمر دراسة الصور البلاغية والمحسنات البديعية ، وما غرقوا فيه وأغرقوا الناس معهم فيه من ابحاث فى التشبيه والاستعارة والكناية ، والطباق والجناس ، ليس بحثا فى صميم الشعر ، وانما هو بحث ضائع وجهد بلا فائدة لأنه أقرب الى عمل أصحاب اللغة منه الى عمل أصحاب الفن ..

وادركوا أن ما جرهم اليه البلاغيون العرب من تفاصيل قد أبعدهم فى الطريق فراسخ عن البحث فى صميم الشعر وحقيقته وكيانه ..

وبدأت النظرة الى المراجع التى كانت تعتبر مقدسات ، يدخلها شىء من الحذر والتدقيق .. فالبلاغيون القدماء ليسوا الحكم الأول والأخير اذ هم قد تأثروا ولاشك بذوق العصر تأثرا كبيرا ، بل تأثروا بأوضاع اجتماعية كانت تسود مجتمعاتهم وتتدخل فى

الحكم على الأشياء ، وفى تقديمها من زاوية بعينها ولتخدم غرضا بذاته ، بل لعل بعض الأغراض الشخصية والعصبيات العنصرية والدعاوى الدينية والفكرية قد دخلت هى الأخرى لتساعد على بلورة أحكامهم وآرائهم ، بل لعلها قد دخلت لتحدد الصورة التى ينقلون ويرسمون ، والشعراء الذين يبرزون ويقدمون ..

فهؤلاء البلاغيون قد فضلوا المتقدمين زمنا على المتأخرين ، وأخرجوا شعراء لشكهم فى دينهم ، كما أخرجوا آخرين لشكهم فى ولائهم للعرب ، بل لقد فرض شكل الحكم نفسه فى أحكامهم على الشعراء الذين يوالون الخليفة أو يقفون منه موقف العداء .. وكان يكفى عندهم الخطأ اللغوى أو النحوى ليهبط من قدر الشاعر بصرف النظر عن أى عامل آخر ..

كل هذه الحقائق نبهت الدارسين المحدثين للشعر العربى ، فقامت الدراسات تنهض بالعبء منذ بدايته ، تحقق دواوين الشعراء ، وتعيد النظر فى الأحكام ، وتكتشف كل يوم شاعرا قد اغفل ، أو حكما قد صدر على غير أساس من البحث الفنى الخالص ، وتنظر للتراث الشعرى كله نظرة جديدة ، ترتكز على فهم جديد لرسالة الشعر الانسانية بصرف النظر عن رسالته اللغوية ..

وظهرت الدراسات الجديدة التى ترتكز على الجانب النفسى عند الشاعر ، وعلى العطاء الوجدانى المرتبط بالقيم الانسانية العامة .. محاولة ان ترى صورة الشاعر من خلال شعره بعد

ان كانت لا تربطـــه الا بموقفه من الأحداث اليوميـــة لعصره ، وكشفت الدراســـات الجديدة عن الحاجة الى تقييم جديد ورؤيا جديدة للشعر العربى القديم لا بحثا عن جمالياته ومهارات اصحابه وقائليه ، وانما بحثا عن العطاء الشعرى الانسانى الذى اضافوه الى تراث الانسانية الشعرى كله . مشاركين به فى مهمة كشف موقف الانسان من الحيـــاة وتطلعه الدائم نحو الكمال والجمال والحب الانسانى العميق والسلام الانسانى الدائم ..

فليس معقولا أن أمة كالأمة العربية سادت حضارتها العالم حقبة زمنية كبيرة ، وضمت ثقافات وتراثات متعددة ، ونقلت الى لغتها كل ما عاش حولها من ثقافات عاصرتها أو سبقتهـــا الى الظهور ، ليس معقولا أن تعبر عن نفســـها بأغراض شـــعرية لا تخرج عن المدح والهجاء ، والوصف والرثاء .. وان كانت هذه الأغراض تخدم اهدافا قبلية أو سياسية أو مذهبية معينة ، فليس من المعقول انها كانت وحدها الفن الذى يعبر به الشعب العربى عن نفسه ، عن آماله وآلامه .. عن تطوره وصراعه ..

بل وليس معقولا أن دولة كالدولة الأمويـــة نهضت بعبء ضخم فى اقرار الحضارة الاسلامية ، ومد رقعة الفتوحات ، وبدلت تنظيمات وتشريعات جديدة فى حياة العرب بل وفى حياة الحضارة الانسانية كلها ، ليس معقولا أن يكون أبرز ألوان انتاجها الأدبى المعبر عن حضارتها هو ما دار بين جرير والفرزدق والاخطل من نقائض مثلا . !

بل وليس معقولا أن اللخميين فى الحيرة والغسانيين فى الشام وهم الذين عمروا طويلا ، وبلغوا من المدنية شأوا كبيرا اذ عاشوا فى ركاب الدولتين الكبيرتين الفرس والروم ، لا ينتج أبناؤهما شعرا على الاطلاق . !

كل هذا جعل الدارسين المحدثين الذين اهتموا بالشعر كل هذا الاهتمام يحسون أن تسليمهم بما نقلوا عن كتب البلاغة والتاريخ الأدبى يحتاج الى الكثير من الفحص والمناقشة والمراجعة .. ورغم كل هذا فقد ناقشوا وفحصوا ما تعلق بالشعر وبالشعر وحده ..

أما النثر فقد اقبلوا على دراستهم له مسلمين تسليما مطلقا بأن العرب لم يعرفوا فى نثرهم الا هذه الاشكال الساذجة : سجع وأمثال وخطب فى الجاهلية ، ورسائل ديوانية واخوانية الى جوار اتساع فى الخطابة فى العصر الأموى ، فاستمرار للرسائل الديوانية فى العصر العباسى ، فمجموعة من المقامات والرسائل بعد هذا العصر ..

وحتى فى الدراسات العديدة التى قامت لبحث أمر هذه الأشكال النثرية من الانتاج الأدبى اهتم الدارسون برسالة النثر اللغوية بصرف النظر عن رسالته الفنية ، فبحثوا صور الصنعة فى اشكالها المتعددة وتطورها الى التعقيد والاسراف مرة ، او الى البساطة مرة اخرى تبعا لذوق العصر .. أما أهمية هذا النثر كأداة فنية

فى التعبير عن تاليه وعصـــورهم فلم يدخل فى حســبان هــذه الدراســة ..

وهكذا انساق الدارسون للنثر وراء البلاغيين فى البحث عن القيم الشكلية من صنعة فيها المهارة والحذق ، أو فيها التكلف الشديد والجهد الشاق ، ولكن ليس فيها التعبير الواضح الذى نريده من تراث فنى . فكانت أبحاثهــم اقرب الى الدراســات الشكلية ، وكان النثر فن تشكيلى يبحث من حيث دلالات خطوطه وعلاقاتها بعضــها بالبعض دون النظر حتى فيما ينظر اليه فى البحث فى الفنــون التشكيليــة من دلات أعمق لهــذه الخطوط وعلاقاتها ..

ولست اريد بهذا أن أهاجم أحدا ، فلاشك أن هذه الأعمال أخذت من أصحابها جهدا ضخما كبيرا ، ولاشــك ايضــا انها كشفت عن جوانب معينة من تاريخ أدبنا النثرى ، ولكن الذى احب أن انبه اليه هو أن الدارسين فى الحقــل النثرى قد تقبلوا أحكام البلاغيين القدماء دون مناقشة ودون أن يسألوا أنفسهم : كيف تقبلوا تراثا فنيا نثريا دون بحث دلالاته الانسانية ؟ .. بل كيف تقبلوا تراثا فنيا يعوزه القصص ؟ وكيف حدث أن الأدب العربى فى صورته هــذه التى ينقلونها الينا عبر أبحاثهم فقير كل الفقر فى الانتاج الروائى والقصصى ؟ ..

وهناك حقيقتان هامتان ينبغى أن يوضعا فى الاعتبار ..

الحقيقة الأولى أن فن الشعر وان كان أعلى مظاهر التعبير

الفنى فى كل الآداب ؛ الا أنه فى واقع الأمر يمثل طبقة بعينها من الفنانين والمتذوقين جميعا .. وهو — عند النظرة المتفحصة العميقة — انما يعكس الحياة الفنية لقطاع معين من الانتاج الفنى ؛ فهو لغة الطبقة التى يتوفر لها نوع معين من الثقافة والحس وليس لغة جميع المشتغلين بالحياة الفنية انتاجا وتلقيا .. وهذا الذى جاءنا من الشعر العربى انما دخل عنصر آخر فى تحديد الطبقة التى يعبر عنها . ذلك أن الشعر اتخذ فى الحياة العربية للتكسب فكان هو وسيلة التقرب للسلطان فى شتى صوره ، واحتضن الخلفاء والوزراء الشعراء يمدحونهم ويعطون .. وحين أرخ المورخون سلطوا أضواءهم على هؤلاء الشعراء الذين تقربوا من السلطان وحظوا باهتمامه .. وفى هذا تفسير واضح لغلبة المدح على الشعر العربى .. ولعل هذا كله يعنى أن معظم الشعر الذى اهتم به الدارسون القدماء كان ذاك الذى يمثل طبقة بعينها من الشعراء والمتلقين .. فما أحسب أن الناس فى عصر من العصور يكتفون بما يقال فى ملوكهم وخلفائهم من مدح ، ويعتبرونه الفن المعبر عنهم جميعا ..

فالشعر بعامه اذن لغة الفن عند طائفة بذاتها من المثقفين والمنتجين ، وهو فى الشعر العربى الى جوار هذا وفى كثير من الأحوال ، لغة الفن عند مجتمع معين يضم هؤلاء الذين يتحدث اليهم وعنهم ، ويستفيد قائلوه منهم استفادة مادية بما يصل اليهم من عطاء ، واستفادة أدبية بما يحظون من اهتمام عند الناقدين والدارسين والمؤرخين ..

والحقيقة الثانية ان الشعوب انما تعبر عن نفسها بلغتها . ولغة الناس هى النثر .. النثر فى سهولته فى الأداء . وسهولته فى التلقى ، وسهولته فى التعبير عن حياة الناس الحقيقية . ولكن هذا الذى جاءنا من النثر العربى يكاد يخرج فى مبناه وفى هدفه من دائرة الفن فى حدوده وأهدافه .. فهذا الذى نقلوه انما هو تجربة تكاد تقترب — فيما وضع لها من قيود شكلية — من طبيعة الشعر فى حاجته الى استعداد خاص عند المتلقى والمنتج . وليس هو النثر الذى يمكن أن يتداوله الناس تداولهم لفن معبر عن حياتهم تعبيرا حقيقيا .. وهو فى هدفه وغايته يكاد أن يكون أداة فى خدمة طبقة بعينها من المثقفين ومن العاملين فى الحياة السياسية والاجتماعية .. وهو بهذا أيضا يخرج عن دائرة النثر الخالد الذى يمثل روح الشعب وحقيقته ..

واذا كان الدارسون قد استطاعوا أن يدركوا كل الحقائق عن الشعر فيطورون منهج دراستهم بما يتيح لهم أن يقدموا لنا تراثا شعريا حقيقيا لا يرتبط — بقدر الامكان — بما درسه الدارسون القدماء من حقائق ودعاوى كانت تفصل الشعر عن جوهر الناس وتقصره على مجتمعات بعينها .. فان واجب الدارسين فى الحقل النثرى لا يقل فى خطورته وأهميته عن هذا الذى قام به دارسو الشعر ، وأحسب أن المسألة تحتاج الى جهد فى البحث عن صور أخرى من التعبير اهملها الدارسون ، كما انها تحتاج الى جهد فى البحث فى الصور المنقولة الينا بمنهج جديد وفهم جديد ..

واهم أشكال النثر التى عرفتها آداب العالم لتعبر عن روح الشعب وطبيعته هى الرواية والقصة .. ولم يخل أدب فى العالم من تراث قصصى كبير يغنيه ، ويثرى معرفته بتاريخ شعبه وحضارته .. ويعود السؤال .. وأدبنا العربى ؟ .. اين فيه القصة والرواية ؟ .. وقبله يأتى سؤال .. أكانت حياة العرب بليدة خاملة لا تعرف التعبير عنها الا فى طبقاتها العليا المتصلة بالحكم والحكام ؟ .. أعنى : هل جمد حس الشعب العربى الا فيما يتعلق بأغراض القبيلة أول الأمر والخليفة بعد ذلك ، فلم يحس بحاجته الى لون من التعبير يعبر عن مجموعه فى مختلف طبقاته . ؟

الحقيقة تقول غير هذا ..

فحياة العرب فى الجاهلية كانت — رغم كل شىء — حياة خصبة بالأحداث ، مليئة بالحركة والنشاط .. وناهيك بشعب يعيش دائما على خطر ، على خطر من الصحراء التى تحيط به دائما وتطبق على حياته من كل جانب ؛ وهى بعد هذا مجهول مخيف لا يدرى من أمره الا القليل الأقل .. وهو على خطر من اعتداء بعضه على بعض ؛ يدفعه الى هذا حاجة العيش وقلة الثروة وضعف فرص الحياة الا للأقوياء .. وعلى خطر من اعتداء الآخرين عليه فهو يقف فى طريق اتصال الشعوب ببعضها ؛ وهو يتحكم فى خط سير التجارة بين أجزاء العالم المعروفة آنذاك ..

وناهيك بحياة هى سلسلة من الانتصارات على قوى الطبيعة

مرة ؛ وعلى القوى الخارجية أخرى .. وهى أيضا سلسلة من الهزائم الفاجعة أمام هذه القوى متفرقة.مرة ومجتمعة مرات ..

هذه الحيـــاة التى استمرت بما وضعت لنفســـها من قيم وما خلقت من تقاليد ؛ وهذه الحياة التى نشم فيها رائحة الصراع، ونسمع فيها جلبته .. كيف يمكن أن تخلو من كل صور الرواية أو القصـــة ؟ كما حـــاول القدماء وتبعهم المحـــدثون أن يثبتوا ويقولوا . ؟

وحياة العرب فى الاسلام ليست حياة سهلة ناعمة غبية ؛ بل هى تتسم منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها دعوة الاسلام بالصراع الذى لا هوادة فيه .. حرب ضد الدعوة الجديدة أول الأمر ؛ حرب تستمد دافعها من الانتصار للقديم ، والتمسك بالصور التى تملأ أذهانهم عن الحيـــاة والكون والآلهـــة ، وتأخذ وقودها من الحقد والبغضـــاء ؛ والتنافس فى مضـــمار التفوق والســـيادة والعصبية .. ثم هى حرب مع الدعوة الجديدة لتســـود أرض العرب ؛ حرب ضد الأهل والأصدقاء والخلان ؛ حرب ضد العلاقة التى تربط الانسان بأهله ، حرب ضد العصبية والتحيز .. ثم هى صراع مرير من أجل أن تسود هـــذه الدعوة ما جاور بلاد العرب من بلاد ، وما أمكن أن يصـــل اليه العربى فى رحلته من أرض ، وهو صراع مؤمن هذه المرة ، واع لخطواته وأهدافه تمام الوعى ..

وهـــذه الحروب كانت فى كل مراحلها حربا بالسيف وحربا نفسية مريرة ؛ صراعا واضحا فيه الغالب والمغلوب . وصراعا خفيا يجيش بالنفوس ويهزها هزا اذ يقاوم فيه العربى ما ورثه من تقاليد وعقائد ، ويقاوم فيه رابطة الدم التى تربطه ببعض من يحارب ؛ ثم هو يقاوم فيه ما تحبه النفس الانسانية من سلامة وامن ودعة واتكال .. وهى حياة مليئة بالمثل والأمثلة تضرب كل حين ؛ مثل الحب والتضحية والايثار ؛ وأمثلة الكراهية والغدر والأثرة ..

وحياة العرب بعد أن استقر الاسلام نموج بأشياء وأشياء ، فهناك شعوب جديدة تدخل هذه الحياة لتصبح بعد حين جزءا من مكونات هذه الأمة .. وهى تدخل فى حذر أول الأمر ثم ما تلبث أن تدخل سافرة مدلة بتراثها ادلالا يكاد يصل الى مرحلة الصراع السافر ؛ صراع التقاليد والعادات والأفـــكار . بعد أن انتهى الصراع الحربى بهزيمـــه هـــذه الشعوب .. ثم ما تلبث هـــذه الشعوب أن تدخل تدريجيا بأفكارها وعاداتها الى الحياة العربية مطورة ما وجدت ، مضيفة الى حيـــاة العرب مفاهيم وعـــادات وأفكار تمتزج بعد حين بالمفاهيم والعادات والأفـــكار العربيـــة لتصبح كلها جزءا من التراث العربى فى مجموعة .. وهناك أيضا صراع مرير على مكان السلطة فى هذا الشعب الكبير بين أبنائه وطوائفه ، يتأثر بهذا الصراع كل جزء من أجزاء هذه الأمة مرة لخيره ومرة بما يأتى بالوبال والنكال عليه .. بل وهناك صراع نحو التطور فى كل مظاهر الحيـــاة يقوم به الرواد وتتبعهم باقى طبقات الشعب فى تمرد حينا وفى ايمان بعد حين .. وتتطور الحياة

وتتعقد . وتأخذ الأفكار السياسية والاجتماعية مكانها من الصراع، نتتصارع فيما بينها وينعكس هذا الصراع على حياة الأمة جميعا . .

وهذه الحياة اذن ليست حياة خاملة لشعب بليد ولكنها حياه خصبة نامية ، مليئة بالأحداث ، ومليئة بمظاهر الصراع ، ومليئة بالحركة والحيوية الدافقة . .

حياة هذا شأنها ليس من العجيب أن نسأل . . كيف لم ينم بها الفن القصصى ، وكيف لم يتطور ، ولم يزدهر . ؟

والاجابة على السؤال لا تخرج عن شيئين :

الأول أن هذه الحياة لم تنتج فنا قصصيا لأى سبب من الأسباب . . وهذا فى حقيقة الأمر شىء لا يقبله العقل ولا المنطق ولا طبائع الأشياء . .

والثانى هو أن هذه الحياة أخرجت كغيرها من حيوات الشعوب فنا قصصيا معبرا جديرا بمثل هذه الحياة ، وبمثل هذه الحضارة ، وبمثل هذا الشعب . . ولكنه لم يصل الينا لسبب أو لآخر . .

والواقع أن الدارسين للأدب العربى لو اهتموا بأمر القصة والرواية اهتمامهم بأمر الشعر لاكتشفوا أن هناك خدعة أخرى قد أوقعهم فيها البلاغيون القدماء ومؤرخو الأدب حين قصروا همهم على تناول الشعر ، واكتفوا به عما عداه . . هذه الخدعة هى أن جانبا كبيرا وخطيرا من أدبنا قد أهمل اهمالا ، وترك

للنسيان عن عمد فى افتراض ، وعن تقصير وقصر فى النظر فى الافتراض الأحسن ..

والعجيب حقا أن يسلم الدارسون بأن فن الرواية والقصة ، فن مستحدث نقلته الينا الترجمة والاتصال بالآداب الأخرى ، وكأن الترجمة والاتصال بالآداب الأخرى أشياء لم يعرفها من العرب الا نحن . ولم يقم بها من أبناء أمتنا الا جيلنا .. بينما هم يعرفون أن العرب اتصلوا بالآداب الأخرى منذ مطلع تاريخهم ، وانهم ترجموا عن هذه الآداب التى عاشت من حولهم معظم ما عثروا عليه من تراث . فكيف أمكن أن نقلد نحن فى عصرنا هذا ، ولم يقلدوا هم فى أى عصر من العصور .. ؟

والواقع أن كل هذه الأسئلة التى اثرناها تحتاج للاجابة عليها الى بحث فى تاريخنا وتراثنا ، علنا نجد من الشواهد ما يشير الى أن أدبنا وتراثنا لم يهمل هذا اللون الحيوى من الانتاج الفنى ، ولم يتخلف عن غيره من الآداب فى الاضافة الى التراث الانسانى بما يغنيه ويثريه ..

وهذا ما سنحاوله فى الفصول القادمة ان شاء الله .

فاروق خورشيد